لبنان الشرقي

مصطاف الزبداني

للأستاذ عز الدين التنوخي

أما اليوم مصطاف من لبنان الشرقي في وادي الزبداني الذي لو نزله من قبل لامرئ القيس لوصفه بما لم يصف به وادي حمانا في لبنان الغربي، ولا سيما بجفاف الهواء، وصحة الماء، واعتلال النسيم، واعتدال الاقليم

أجل، إن لبنان الشرقي ليمتاز بجفاف الهواء لبعده عن مؤثرات البحر ولقربه من البيداء، ولذلك وصفه مشاهير الأطباء للمصابين بأمراض الرطوبة كالرئية — الرومتيزم — والسل وعرق النسا، ووصفوه لمن « بُسَّقين » التي تكاد تكون منقطعة النظير بين عيون بلاد الشام كلها في صفائها وخفة مائها، وما اشتملت عليه من عناصر تذيب الرمل والحصاة، وتزيد في الهضم ما تشاء فتتعب الطهاة. ولقد أشرت إلى عجيب تأثيرها في السنة الماضية حينما وصفت في هذه الرسالة عين الصحة المنبجسة من جبال حمانا في لبنان الغربي

ليس مجال القول ذا سعة فأسهب في وصف وادي الزبداني الجميل، ولذلك اقتضبت الكلام في تحليته اقتضاباً: بذكر ما فيه من الطرق المعبدة والمغاني والمباني، وبيان ما استوفاه من منافع وروائع تبر المصطافين وتسر الناظرين ...

يمتد وادي الزبداني الجميل من الجنوب إلى الشمال بين طودين أو سلسلتين من الجبال الشرقية والغربية، وعلى سفوح الطود الشرقي تضطجع تربتا مغايا وبُسَّقين وقصر الجرجانية الأندلسي، وقرية بلودان أعلى قرى الوادي وفيها الفندق الفخم الذي يعد من أجمل قصور الفنادق الشامية، وفي الجانب الشمالي من بطن الوادي قامت قرية الزبداني أم القرى، ومهوى قلوب الورى

إن شرايين الحياة في هذا الوادي هي طرقه الكثيرة المعبدة المزفتة، والزفت شاع أنه نعت سوء في كل شيء إلا في الطرق، فانه وصف خير ونعت يمن فيها يليد غبارها ويبقى السالك عثارها، منها الطريق السلطانية التي تصل دمشق بالزبداني، وطريق مزفتة تصعد من الزبداني إلى بلودان، وأخرى مثلها تربط الزبداني بالجرجانية وبقين ومضايا، وطريق مخضرة أخرى تصل قريتي بقين ومضايا بطريق دمشق على مقربة من مفرق طريق منبع نهر بردى: نهر دمشق الذي وصفه حسان بأنه « يصفق بالرحيق السلسل » وذكره شوقي مخيياً دمشق بقوله:

سلامٌ من صَبا بردى أرقُّ ودمع لا يُكفكفُ يا دمشقُ

أما أم قرى هذا الوادي البهيج فهي الزبداني مركز القضاء وعامله القائم[1] بشؤونه رجل من أفاضل الرجال غيور على عمرانه، وتوفير أسباب الهناء والبلهنية على نازليه وسكانه؛ وفي الزبداني محكمة يرأسها قاض[2] ماض في أحكامها، ومستوصف طبي للحكومة تام الأدوات يديره طبيب نشيط[3] يداوي الأغنياء من المصطافين والفقراء على السواء. ولا يتقاعس عن تلبية نداء المرضى في مساكنهم، بعودهم ليخفف من الداء الآلام، ويقوى في الشفاء الآمال، ثم هو يعطي الأدوية مجاناً للبائس والمعتر حتى الغني المضطر إن لم يجد علاجه في صيدلية الزبداني[4] العامة. وفي قرية بلودان صيدلية كبيرة، وفي مضايا أخرى صغيرة[5]، وبذلك يجد المصطاف الصحيح في وادي الزبداني نعميه المقيم وهناءه؛ والمريض لا يعدم في مغانيه طبيبه الحاذق وشفاءه

ومما تمتاز به الزبداني على سائر قرى الوادي أنها مركز السيارات، وإن فيها محطة القطارات، فهي ملتقى الحاضر والبادي، ومنتدى الرائح والغادي، كما تمتاز برخص أسعار الثمار وكثرتها، وتنوع الخضراوات الغضة ووفرتها، وبسوقها الكبيرة المشتملة على جميع ما يحتاج إليه الاصطياف والانتجاع، وبمتنزهاتها المستوفية لشرائط الابداع والامتاع

بعض مناظرها الساحرة: كل ما في وادي الزبداني بهيج جميل: بهيج لمعرى مقهى أبي زاد ومنظره الساحر الجميل، ومقهى بقين وعينها التي يحق أن تسمى السلسبيل، وجميل كل الجمال قصر الجرجانية الأندلسي بشلالاته وفواراته، وفخم كل الفخامة فندق بلودان بمقصوراته وحماماته، ورائعة — شهد الله —

(١) هو السيد خيري رضا قائم مقام القضاء
(٢) السيد سعاد العظمى (٣) السيد سليم العطار
(٤) فرع الصيدلية الوطنية المشهورة بدمشق
(٥) فرع صيدلية القنواتي بدمشق

قرية مضايا بصفاء سمائها . وصحة هوائها ، وماذا عسى أن يقول قائل فى محاسن الزبدانى ومغانيها ؟ فلعل أصدق مايقال فى جنتها قول الشاعر [1] فى وصف دمشق وغوطتها :

هذه الغوطة ما أبهجها ... وهى فى نيسان قيد المجتلى
قال سبحان الذى دبجها ... من رآها فتنة للمقل
إنه قد شاء أن يخرجها ... جنة فى الأرض للمستعجل

— إن بطن هذا الوادى المبارك ينقسم إلى قسمين شمالى وجنوبى: أما الشمالى منه فمامر يبدو بلون أشجاره أخضر نضراً ؛ وأما الجنوبى منه فجله غير مغروس ومختلف ألوانه : هذه بقعة منه محصورة تبدو صفراء فاقعة ، وهذه بقعة محروثة تبدو حمراء قانية ، وتلك رقعة باثرة لم تحرث ولم تزرع فهى ذات لجبة غير قرمزية ؛ وهنالك رقعة مزروعة يضرب لون خضرتها القاتمة إلى السواد فتجتلى عين الناظر من هذه البقاع وهاتيك الرقاع مجموعة من الطنافس المحروثة والزرابى المبثوثة تستهوى الأفئدة وتقيد النواظر

— إن من ينكر السحر من أهل هذا العصر يؤمن به مثلى بعد أن يرى ما رأيت من جمال إشراق الشمس على سلسلة الجبال الغربية ، ثم يزداد استيلاء الضياء حتى يغمر ما تحت الشناخيب والذرى فتزداد بهجة النفس ، فاذا ما بلغت الشمس أشجار الروابى المغروسة رأيت مشهد سواد الأشجار مع بياض الأنوار فتخيلت التقاء الليل بالنهار عندما يتنفس الصبح فى الأسحار .

وإن أنس لا أنس تلك العشية التى ذهبت فيها إلى مغارة « النابوع » تلك العين التى لا يكاد يرتوى وارديها لشدة برد مائها وفرط عذوبته ، وكان رفيق الوفيق فى ارتياد هذه العين العجيبة الشيخ حسن بو عياد المغربى من زعماء الاصلاح فى المغرب الأقصى ، وهو على رأيى فى إصلاح المرأة باصلاح تربيتها وبيئتها ، ثم خرجنا من المغارة والشمس فى سفرة وجه العاشق الوامق فانتقلنا من لدة إلى لدة : من نشوة الارتواء إلى نشوة الاصغاء . ماذا رأينا من مشهد فخم ، وماذا وجدنا من نسيم روح ، وماذا سمعنا من حسن لحن ؟ مشهد لعمر الحق رائع ، ونعيم روح غامر ، ولحن مزمار ساحر . شهدنا فوق مغارة النابوع على سفح الجبل قطيعاً من المعزى يثير من ورائه عجاجة منتشرة ، ومن أمامه هاديه وراعيه يطرب قطيعه بألحان مزماره الجبلية ، كما يطرب الجيش بألحان موسيقاه الحربية ، وقد امتزج أنين المزمار بزئير الأجراس ، وكأنما كان الداعى يهنىء بسلامة الوصول قطيعه الطروب ، ويودع بلسان المزمار ملكة النهار الجانحة إلى الغروب ، ولا يزال القطيع الراعف فى هبوطه حتى يبلغ قرارة الوادى فينقع ببرد الماء غليل الأحشاء ، ثم يتابع سيره الهادئ إلى حظيرته ونحن نتابعه بأبصارنا ، ونشيعه وأجراسه وراعيه وأنفاسه ، ولا نزال من خلفه مسحورين حتى يتوارى عن العيون بحجاب الليل ...

وهل أحدث أخى القارئ عن القمر ، وكلنا يهوى القمر ، وحبيات أن أنسى لياليه القمراء على شاطئ البحر صغيراً ، أو لياليه السواحر والفلك يجرى بنا فى بحر النيل الجميل . لا ، ولا أنسى تلك الليالى البهيجة ، والقمر يفيض الطبيعة من حولنا ونحن مضطجعون على هضاب المزة [1] الفيحاء . وما لى ولحديث القمر فى الدهر الغابر ، وأنا أستطيع التحدث عنه فى هذا الشهر الحاضر ، ذاكراً للقارئ أن أهل دمشق من أعشق خلق الله للقمر ، ولو أن الدمشقى كان نباتاً لكان « عباد القمر [2] » فلقد أخبرنى عامل الزبدانى عشية أمس بأن عدد المصطافين فى الزبدانى وحدها قد بلغ فى هذا العام نحو ألف نفس يؤلفون مائتى أسرة ، ولكن هذا العدد يبلغ فى الليالى القمراء أضعافاً مضاعفة فبيج وادى الزبدانى بالمصطافين عجيج الحجيج ، ولكنهم من حجيج القمر . وتمتلئ الطريق السلطانية بين دمشق والزبدانى بالسيارات الممتلئة بعشاق القمر ، وتغص بهم مقصورات القطار ، فى الليل والنهار ، وأقدار النساء تشارك الرجال فى عشق قمر السماء ، وكأنه لا غنى للجنسين اللطيف والخشن عن المشاركة التى ازدادت فى هذا العصر تشابكا ووشوجاً . فهنالك التربية المشتركة والسباحة المشتركة ، والسباقات المشتركة ، وهنا فى الوادى النزه المشتركة ليالى القمر على طريق الجرجانية وبقين ومضايا .

إن تطور المرأة من الحجاب إلى السفور فالحسور كان سريعاً

(١) من موشحة فى وصف دمشق لكاتب هذا المقال .

(١) قرية جميلة غربى دمشق أنبتت تربتها كثيراً من العلماء كالحافظ المزى وضمت مثل سيدنا دحية الكلبى وشاعر دمشق ابن عنين وغيرهما .

(٢) ويسمى أيضا دوار القمر لأن زهرته الصفراء الشبيهة بالترس تدور مع القمر ، ويسمى بالفرنسية دوار الشمس tourne-sol

جداً في مصر ، ولكنه بطيءٌ في ديار الشام ، ولا تزال الدمشقية مع تعلمها وولعها بالنهضة الاجتماعية تؤثر التدين الصادق على التمدن الكاذب ، والكمال والعفاف ، على الابتذال والاسفاف وبعبارة أوجز إنها تفضل السفور الشرعي على الحسور البدعي ، فلا تخلو المرأة المسلمة ولا تسافر إلا بمحرم يحافظ على عرضها وشرفها ويحول دون ما يؤذيها ويرديها

ويزداد السفور الشرعي في دمشق يوماً بعد يوم ، ولا يلبث أن يسود على الحجاب أخيراً . ومن الناس من يقاوم هذا التطور الحيوي الذي لامناص منه بالسفاه والشتائم لا بالحجة والبرهان، بيد أن من عقلاء رجال الدين من يحب للفانيات سفور الراهبات الذي لاحسور معه ، ويسعى لاعادة الحاسرات إلى سفور الشرع المحتشم الذي يكفل للمرأة تعلمها وتقدمها ، والتربية الاسلامية في المنزل إذا كانت صحيحة تعد البنات للسفور الشرعي الشريف الذي تصان به الكرامة، وتوقى به الحسرة والندامة . وليت رجال الدين يتعاونون تعاوناً معقولاً يتمكنون به من المحافظة على اعتدال المرأة المسلمة ، ويبرهنون به على إمكان تعلم المرأة وتقدمها مع ذلك الاعتدال ، وإلا فانا لانأمن جانب الفوضى في السفور الحاضر كما نشاهد من نماذجه المشوهة الفاسدة في وادي الزبداني من برانيط البنات وقبعات[1] الأمهات ، وارتياد السينما والقهوات ، وغدا البالات والحانات ، ومما أُرمى إليَّ بالأبيات التاليات:

يا صبايا

يا صبايا الزبداني رأفة بهواة الحسن منا ياصبايا
قتلموا عمن يراكم أوجهاً صقلت حتى سبتاها سرايا
واستروا عنا عيوناً خلقت لقلوب المستهامين بلايا
فوقت ألحاظهن أسهماً مصمياتٍ نحن قد كنا الرمايا
لست أدري ماالذي قد فعلت أسهماً رشقتنا أم منايا
قد سرى يغزو الورى من فتن ال
عين — ما أكثر صرعاها — سرايا

* * *

يا سقى الله المناديل التي صنم الأعراض فيها والملايا!

(١) وهي التي تسمى بونه bonnet

ولحى الله البرانيط التي أخذت الأحساب منكم والسجايا!
كم عرفنا خجلاً من شربكم عرفاً يعرفكم ديناً ورايا
في محار الصون كنتم دُرراً كن للأزواج لا غير هدايا
لم نكن نأمن منكم فتناً في الزوايا ، كيف من بعد الزوايا ؟
والفؤادُ الحيُّ منا هدفٌ لعيونٍ وخدودٍ وثنايا

* * *

مسرحَ الآلام قد هجتَ لنا من رسيس الوجد والحب بقايا
انا إن لم أكُ أنسى زمنا من حياتي فهو هاتيك العشايا
يارعاكَ الله لولا سربة كنَّ ينثرنَ على الناس الخطايا
رائحاتٍ غاديات ضَلَّةً بين « بُقَّين » مساءً و « مضايا »
سافراتٍ حاسراتٍ وغدًا هنَّ أنصاف عرايا فسرايا!

الزبداني — عز الدين التنوخي

اقرأ :

توفيق الحكيم

في كتبه الثلاثة الجديدة :

عهد الشيطان
ثمن النسخة ٧ قروش

تحت شمس الفكر
عن النسخة ٨ قروش

تاريخ حياة معمرة
ثمن النسخة ١٠ قرشا

تطلب من جميع المكاتب الشهيرة